

(١)

**بِرُّ الوالدين
وَإِكْرَامُ ذِي الشَّيْبَةِ**

الحمد لله رب العالمين، القائل في كتابه الكريم: {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٌ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا} ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَنَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ **وبعد :**

فلقد جاءت الشريعة الإسلامية برسالة إنسانية داعية إلى كل خلق كريم ، وسلوك مستقيم ؛ لأن الأخلاق هي الأساس الذي تقوم عليه الأمم ، وتبنى عليه الحضارات، وهي العماد الذي يضمن بقاءها واستمرارها ، ويرجى معه تقدمها وعزها ، فسلامة الأمة وقوة بنائها لا يكون إلا بتمسكها بالأخلاق الفاضلة ، فالأمم التي لا تبنى على القيم والأخلاق تحمل عوامل سقوطها في أصل بنائها وأسس قيامها، والله در القائل:

إِنَّمَا الْأُمَمُ الْأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ *** فَإِنْ هُمْ ذَهَبَتْ أَخْلَاقُهُمْ ذَهَبُوا

وإن من مظاهر عظمة الإسلام ورحمته وسماحته وعدله وإنصافه اهتمامه بتكريم الإنسان ، ووصيته برعايته في جميع مراحل حياته وفق منهج رباني محكم يراعي الحقوق والواجبات ، ويضمن للناس جميعاً حياةً آمنةً كريمةً مستقرة ، ولا شك أن من أجلى وأوضح مظاهر هذه العظمة أمر الله سبحانه وتعالى للمسلمين بالإحسان مع الناس جميعاً ، حيث يقول ربنا سبحانه وتعالى: {وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا}، ويتأكد هذا الأمر بل تعظم الوصية به في حق الوالدين ، فلقد أمر الله (عز وجل) الناس عامة بالإحسان إلى الوالدين ، والبر بهما ، والتلطف معهما ، وخفض الجناح لهما في أكثر

(٢)

من آية ، فقال سبحانه: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} ، وقال تعالى: {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٌ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا} ، والمتدبر في هذه الآية الكريمة يرى لفظة إنسانية واجتماعية تميز بها الإسلام في حديثه عن بر الوالدين ، في قوله تعالى { إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا} ، ففيها ما يُشعر بضرورة أن يكون الوالدان في كنف أبنائهم ، وتحت عنايتهم عند الكبر ، لا سيما وأن تلك المرحلة إنما هي مرحلة الضعف التي يحتاج الإنسان فيها إلى عظيم عناية ورعاية .

إن المتدبر لكتاب الله (عز وجل) يرى أن الدعوة إلى بر الوالدين جاءت مقرونة بالدعوة إلى توحيد الله في ست آيات من كتاب الله ؛ وذلك لعظم منزلتهما ، وجيل قدرهما ، فعن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: (ثَلَاثُ آيَاتٍ نَزَلَتْ مَقْرُونَةً يَثَلَاثُ لَمْ تُقْبَلْ مِنْهَا وَاحِدَةٌ يَغْيَرُ قَرِينَتُهَا ، الْأُولَى: قَوْلُهُ تَعَالَى: {أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ} ، فَمَنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَلَمْ يُطِيعْ رَسُولَهُ (صلى الله عليه وسلم) لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ. وَالثَّانِيَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ} ، فَمَنْ صَلَّى وَلَمْ يَزَكَّ لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ. وَالثَّلَاثَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى: {أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ} ، فَمَنْ شَكَرَ اللَّهَ وَلَمْ يَشْكُرْ وَالِدَيْهِ لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ} .

لقد أعلى الإسلام من قيمة بر الوالدين والإحسان إليهما ، ولا أدل على ذلك من إشارات القرآن الكريم في أكثر من موضع إلى أن بر الوالدين هو خلق الأنبياء والمرسلين ، وهدي الأولياء والصالحين ، فهذا نبي الله نوح (عليه السلام) يدعو ربه قائلاً: {رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا} ، وأبو الأنبياء سيدنا إبراهيم (عليه السلام) يدعو ربه قائلاً: {رَبِّ

(٣)

اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ}، وهذا الابن البار إسماعيل (عليه السلام) يجيب أباه بقوله: {يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ}، وهذا نبي الله عيسى (عليه السلام) يتحدث عن بره بأمه فيما حكاه عنه القرآن الكريم: {وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا} .

ومما لا شك فيه أن بر الوالدين والإحسان إليهما صورة من أرقى وأنقى صور البرِّ والوفاء؛ والله درّ القائل:

إن الوفاء على الكريم فريضة واللوم مقرون بذي الإخلاف

وترى الكريم لمن يعاشر منصفًا وترى اللئيم بجانب الإنصاف

ويقول الآخر:

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا من كان يألفهم في المنزل الخشن

ومَن أَحَقُّ بِالْوَفَاءِ مِنَ الْوَالِدِينَ؟ مَن أَحَقُّ بِالْوَفَاءِ مِمَّنْ حَمَلْتِكِ فِي بَطْنِهَا تِسْعَةَ أَشْهُرٍ كَانَتْهَا تِسْعَ حَجَجٍ ، وَكَابَدَتْ عِنْدَ وَضْعِكَ مَا يَذِيبُ الْمُهْجَ ، وَأَرْضَعْتِكِ مِنْ ثَدْيِهَا لَبَنًا ، وَغَسَلَتْ يَمِينِهَا عِنْدَ الْأَذَى ، وَآثَرْتِكِ عَلَى نَفْسِهَا بِالْغِذَاءِ ، وَإِنْ أَصَابَكَ مَرَضٌ أَوْ شَكَايَةٌ أَظْهَرْتَ مِنَ الْأَسْفِ فَوْقَ النَّهْيَةِ ، وَلَوْ خِيرْتَ بَيْنَ حَيَاتِكَ وَمَوْتِهَا ، لِاخْتَارْتَ حَيَاتَكَ بِأَعْلَى صَوْتِهَا ، لِذَلِكَ وَصَانَا رَبَّنَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِهَا فِي قَوْلِهِ (عز وجل) : {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا} .

ومَن أَحَقُّ بِالْوَفَاءِ مِنْ أَبِي عَطُوفٍ مُتَعَبٍ فِي هَمِّهِ لَا يَشْتَكِي؟ كَمْ تَكْبِدُ الصَّعَابَ وَتَحْمِلُ الْمَشَاقَّ مِنْ أَجْلِكَ؟ يَبْذُلُ إِلَيْكَ النِّصِيحَةَ بِصَدَقٍ وَكُلِّ آمَالِهِ أَنْ تَرْتَقِيَ ، اللَّهُ دَرُ الْآبَاءِ كَمْ تَحْمِلُوا مِنْ أَلَمٍ وَتَعَبٍ مِنْ أَجْلِ أَبْنَائِهِمْ ، مِنْ أَحَقِّ بِالْوَفَاءِ وَالْبِرِّ مِنَ الْوَالِدِينَ؟

(٤)

لذا فقد جعل النبي (صلى الله عليه وسلم) بر الوالدين في مرتبة عالية ، ومكانة سامية ، حيث عدّه (صلى الله عليه وسلم) من أحب الأعمال إلى الله (عز وجل) بعد الصلاة المكتوبة ، بل وقدم (صلى الله عليه وسلم) ذكره على الجهاد في سبيل الله ، فعندما سئل (صلى الله عليه وسلم): أَيِّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَيَّ اللَّهُ تَعَالَى؟ قَالَ: (الصَّلَاةُ عَلَيَّ وَقْتِهَا)، قيل: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: (بِرُّ الْوَالِدَيْنِ)، قيل: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: (الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ). وعندما جاءه رجل يستأذنه (صلى الله عليه وسلم) في الجهاد ، سأله النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، قائلاً: (أَحْيٌ وَالِدَاكَ؟)، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: (فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ).

ومما لا شك فيه أن حق الأم في البر جدّ عظيم ؛ فقد جاء رجلٌ إلى رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: (أُمُّكَ) قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: (ثُمَّ أُمُّكَ)، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: (ثُمَّ أَبُوكَ). وعن عائشة (رضي الله عنها) قالت: سألت النبي (صلى الله عليه وسلم) أي الناس أعظم حقا على المرأة ؟ قال: (زَوْجُهَا). قلت: فأبي الناس أعظم حقا على الرجل؟ قال: (أُمُّهُ). وجاء رجلٌ إلى النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَدْتُ أَنْ أَعْرُوزَ وَقَدْ جِئْتُ أَسْتَشِيرُكَ، فَقَالَ: (هَلْ لَكَ مِنْ أُمَّ؟) قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: (فَالزَّمْهَا، فَإِنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ رِجْلَيْهَا).

ولا ينتقص من بر الوالدين ولا ينال من حقهما أن يكونا على غير الملة ؛ فقد قال الله تعالى: {وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا}، أَيُّ بِالْمَعْرُوفِ، وَهُوَ الْبِرُّ وَالصَّلَةُ وَالْعِشْرَةُ الْجَمِيلَةُ ، فقد يرى بعض الشباب أنه أكثر تديبًا من والده ، فيغلظ له القول ، أو يسيء معاملته، فنلفت أنظارهم إلى أمر الله (عز وجل) بالإحسان إلى الوالدين ولو كانا كافرين ، أو حتى لو أرادا أن

يحملك على معصية الله ، أو حتى على الكفر ، فلا تطعهما في ذلك ، غير أن ذلك لا يخول لك سوء معاملة أيّ منهما ، إنما يجب أن تكون في جميع أحوالك ، كما أمرك الحق سبحانه : { وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا } ، مع علمك بأن ذلك ليس تفضلاً منك إنما هو حق وواجب عليك تأثم إن لم تقم به أو قصرت فيه ، وَعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ (رَضِيََ اللَّهُ عَنْهُمَا) ، قَالَتْ: قَدِمْتُ عَلَى أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنَّ أُمِّي قَدِمَتْ وَهِيَ رَاغِبَةٌ؟ أَفَأَصِلُهَا؟ قَالَ: (نَعَمْ، صِلِي أُمَّكَ) .

فلنكن بارين بآبائنا وأمهاتنا ، أوفياء لهم ، ولنوقن بأن البرّ دين يسدد في الحياة قبل الممات ، وعلينا أن ندرك أن عقوق الوالدين مما يجعل له العقوبة في الدنيا مع ما فيه من غضب الله (عز وجل) في الآخرة . مصداقاً لقول النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (اِثْنَانِ يُعْجَلُهُمَا اللَّهُ: الْبَغِيُّ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ) .

وفي الحديث : (لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنَانٌ ، وَلَا عَاقٌ وَالِدِيهِ ، وَلَا مُدْمِنٌ حَمْرٍ) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (أَلَا أُنبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَائِرِ؟) ثَلَاثًا ، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ: (الإِشْرَاقُ بِاللَّهِ ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ ، وَجَلَسَ وَكَانَ مَتَكِّيًا فَقَالَ: أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ) .

ولنعلم جميعاً أن رضا الله (عز وجل) من رضا الوالدين ، وسخطه من سخطهما ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (رِضَا اللَّهِ مِنْ رِضَا الْوَالِدَيْنِ ، وَسَخَطُ اللَّهِ مِنْ سَخَطِ الْوَالِدَيْنِ) .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

(٦)

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .
إخوة الإسلام :

إن الإسلام دين الأخلاق الفاضلة ، والمعاملة الحسنة ، دين الوفاء وحفظ العهد ، ورد الجميل ، دين لا يعرف الجحود ولا التناول على الآخرين ؛ لأنه دين الإنسانية بكل معانيها ، وتجلي مظاهر هذه الإنسانية في رعاية ذي الشيبة عموماً، وكفالة حقوقهم، وقضاء حوائجهم ، والسعي على مصالحهم ؛ فلقد جاءت نصوص الشريعة الإسلامية تدعو إلى الاهتمام بكبار السن ، والعطف عليهم ؛ تقديرًا وإجلالًا لهم ، فعن أبي موسى (رضي الله عنه)، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ تَعَالَى : إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْعَالِي فِيهِ ، وَالْجَافِي عَنْهُ ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ) ، أي أن : تعظيم الشيخ الكبير في الإسلام ، بتوقيره في المجالس ، والرفق به ، والشفقة عليه ، ومناداته بأحب الأسماء إليه ، وعدم التقدم عليه في الكلام ، أو المشي أمامه ونحو ذلك ، كل هذا من كمال تعظيم الله (عز وجل) وإجلاله ، لما لهذا الكبير من مكانة وحرمة عند الله تعالى .

ولقد بلغ اهتمام الشرع الحنيف بالكبير والمسنة أن أوصى بمزيد من التخفيف عليهم والتيسير لهم في أداء الطاعات والعبادات رأفة بهم ، فقد أمر الإسلام بتخفيف الصلاة التي هي أعظم شرائع الدين من أجل أصحاب الأعدار وكبار السن ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ بِالنَّاسِ فَلْيُخَفِّفْ ، فَإِنَّ فِيهِمُ الضَّعِيفَ ، وَالشَّيْخَ الْكَبِيرَ ، وَذَا الْحَاجَّةِ).

(٧)

على أنه ينبغي أن نعلم أن الإسلام لم يفرق بين ذي الشبهة المسلم وغير المسلم في المعاملة ؛ فهذا خامس الخلفاء الراشدين سيدنا عمر بن عبد العزيز (رضي الله عنه) يكتب إلى عامله في البصرة كتاباً يقول فيه: "وانظر مَنْ قَبْلَكَ من أهل الذمة قد كبرت سنه ، وضعفت قوته ، وولت عنه المكاسب ، فأجر عليه من بيت مال المسلمين ما يُصلحه".

ولما رأى سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) رجلاً مُسناً من أهل الكتاب يتكفف الناس ، فقال : والله ما أنصفنا هذا إن أكلنا شبيبته وضيعناه في شبيبته ، ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه.

وهذا ما أقره سيدنا خالد بن الوليد (رضي الله عنه) في صلحه لأهل الحيرة: "وجعلتُ لهم أيُّما شيخُ ضَعُفُ عن العمل ، أو أصابته آفة من الآفات ، أو كان غنياً فافتقر ، وصار أهلُ دينه يتصدقون عليه طرحت جزيته ، وعيل من بيت مال المسلمين". فالإسلام يدعو إلى التكافل والتوازن بين أفراد المجتمع حتى تسود روح الوثام والسلام ، ويتحقق السلام النفسي ، والأمن المجتمعي بين أبناء المجتمع جميعاً . فما أحوجنا إلى عودة إلى قيمنا الدينية والمجتمعية والإنسانية من بر الوالدين ، وحسن معاملتهما ، وإكرام الكبير ، وذي الشبهة ، والإحسان إلى الخلق جميعاً .

**فاللهم اهدنا لأحسن الأخلاق ، فإنه لا يهدي لأحسنها إلا أنت ،
واصرف عنا سيئها ، فإنه لا يصرف عنا سيئها إلا أنت .**